Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار السابع - العدد العشرون || تاريخ الإصدار 2026-11-20

الزنكيون ودورهم في مقاومة الصليبيين دراسة تاريخية

The Zengid Dynasty and Their Role in Resisting the Crusaders: A Historical Study

المدرس الدكتور علي عواد خضر عبدالله

Lecturer Dr. Ali Awad Khader Abdullah

الكلية التربوية المفتوحة - مركز كركوك الدراسي

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss72062

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
شهدت المنطقة الاسلامية في القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تحديات جسيمة تمثلت في الغزو الصليبي الذي استهدف بلاد الشام ومناطق الثغور. وقد ترك هذا الصراع اثاره الواضحة على البنية السياسية والعسكرية والاجتماعية للمشرق الاسلامي . وفي هذا المشهد المضطرب برزت قوى اسلامية جديدة حملت على عاتقها مسؤولية الدفاع عن ديار الاسلام, وفي طليعة هذه القوى الدولة الزنكية التي اسسها عماد الدين زنكي سنة (521هـ/ 1127م).

سلط بحثنا الضوء على الدولة الزنكية التي انشئها الزنكيون في بلاد الشام والجزيرة الفراتية والتي كانت النواة الاولى لبناء جبهة اسلامية موحدة للوقوف بوجه الصليبيين وطردهم من الاراضي الاسلامية. عبر توضيح الخطوات والاعمال التي قام بها الزنكيون منذ ايام عماد الدين زنكي مؤسس الدولة وخلفاءه من بعده ابنه نور الدين محمود ومن ثم صلاح الدين الايوبي والتي تكللت نتائجها بتحرير بيت المقدس وطرد الصليبيين من الاراضي الاسلامية.

أن الإنجازات الزنكية لم تكن ذات طابع عسكري فحسب، بل شكلت مشروعاً إصلاحياً شاملاً أسهم في إعادة بناء الدولة والمجتمع، وأوجد بيئة سياسية وعسكرية مهدت لظهور الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين، التي استطاعت استثمار الإرث الزنكي في تحقيق الانتصارات الكبرى واستعادة القدس. أن نجاح الزنكيين ارتبط بقدرتهم على الجمع بين الإصلاح السياسي والتعبئة الفكرية والتنظيم العسكري، مما جعل تجربتهم واحدة من أبرز التجارب الوحدوية في التاريخ الإسلامي الوسيط، وأحد أهم النماذج التي أسهمت في تغيير موازين القوى في الصراع مع الصليبيين.

الكلمات المفتاحية: الزنكيون, الصليبيون, الخلافة العباسية, بلاد الجبهة الاسلامية, السلاجقة.

Abstract:

The Islamic world witnessed formidable challenges during the 5th and 6th centuries AH (11th and 12th centuries CE), primarily the Crusader invasions targeting the Levant and its border regions. This conflict left a profound impact on the political, military, and social structures of the Islamic East. Amidst this turbulent landscape, new Islamic powers emerged, shouldering the responsibility of defending the lands of Islam. Foremost among;8 these was the Zengid state, founded by Imad ad-Din Zengi in (521AH/1127CE) .

Our research sheds light on the Zengid state, established by the Zengid dynasty in the Levant and the Jazira region, which served as the initial nucleus for building a unified Islamic front to confront the Crusaders and expel them from Islamic lands. This is achieved by outlining the steps and actions undertaken by the Zengid dynasty from the time of Imad ad-Din Zengi, the state's founder, through his successors, including his son Nur ad-Din Mahmud and later Saladin, culminating in the liberation of Jerusalem and the expulsion of the Crusaders from Islamic territories.

The Zengid achievements were not solely military in nature, but constituted a comprehensive reform project that contributed to rebuilding the state and society, creating a political and military environment that paved the way for the emergence of the Ayyubid state under Saladin. Saladin was able to capitalize on the Zengid legacy to achieve major victories and recapture Jerusalem. The success of the Zengids was linked to their ability to combine political reform, intellectual mobilization, and military organization, making their experience one of the most prominent unification experiences in medieval Islamic history, and one of the most important models that contributed to changing the balance of power in the conflict with the Crusaders.

Keywords: Zengids, Crusaders, Abbasid Caliphate, Islamic Front, Seljuks

المقدمة

مثل الزنكيون نقطة تحول فاصلة في مسار المواجهة مع الصليبيين , اذ تمكنوا من توحيد الجبهة الاسلامية , واحياء روح الجهاد والمقاومة بعد التشرذم والتشتت السياسي والتفكك الداخلي الذي استغله الصليبيون في فرض سيطرتهم. وفي مقدمة انجازاتهم تحرير مدينة الرها (539هـ/ 1144م), وهو اول انتصار اسلامي كبير على الصليبيين, مما كان له الصدى الواسع في العالمين الاسلامي والمسيحي.

تبرز اهمية هذه الدراسة من خلال ابراز الدور الزنكي في مقاومة الصليبيين باعتباره الاساس الذي بني عليه فيما بعد من انجازات تحققت على يد الدولة الايوبية بقيادة صلاح الدين الايوبي. فلم يقتصر دور الزنكيون على الجانب العسكري, بل اسهموا في بناء قاعدة سياسية وادارية متماسكة مكنتهم من مواجهة الصعاب بفاعلية كبيرة, ودورها في توحيد الجبهة الاسلامية ومقاومة الصليبيين, من خلال دراسة تاريخية تحليلية تعتمد على المصادر المعاصرة للأحداث والدراسات الحديثة, من اجل تسليط الضوء على الدور الذي لعبته هذه الدولة في مسار الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين.

قسم البحث الى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة, تناول المبحث الاول عماد الدين زنكي وبداية المقاومة الاسلامية ضد الصليبيين وكيف قام عماد الدين ببناء امارته التي كانت النواة الاولى لتلك المقاومة, فيما اهتم المبحث الثاني في نور الدين زنكي وتوسيع امارته واجراءاته التي ثبتت اسس الدولة التي اقامها والده عماد الدين, بينما ركز المبحث الثالث في اقامة الدولة الموحدة وتوحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة الصليبيين.

اعتمد البحث المنهج التاريخي, الوصفي التحليلي، تأصيل الحدث تاريخيا والتركيز جذوره التاريخية, ثم وصفه تفصيليا عبر تحديد اسباب نشوئه, والعوامل التي رافقت تكوينه, ثم تحليل الاهداف المبتغاة من ورائه, والتغييرات التي احدثها, وتم تطبيق المناهج الثلاثة, من خلال التركيز على الخطوات التي قام بها الزنكيون من اجل توحيد الجبهة الاسلامية في مقاومة الصليبيين, وتفصيل تلك الخطوات, ووصف الظروف وتحديد الاسباب التي دعت الى اتخاذ تلك الخطوات, ومن ثم تحليل الدور الذي قام نه الزنكيون لتوحيد الجبهة الاسلامية ومن ثم تحرير الاراضي الاسلامية من الصليبيين فيما بعد.

المبحث الاول

عماد الدين زنكي وبداية المقاومة الاسلامية المنظمة ضد الصليبية

كان لعماد الدين زنكي مكانة كبيرة في التاريخ الاسلامي فقد كان له دور كبير في توحيد الجبهة الاسلامية للتصدي للصليبيين إذ بنى القاعدة الاساسية التي بنى عليها فيما بعد القادة المسلمون من امثال نور الدين وصلاح الدين وقلاوون انتصاراتهم واكمالهم المشروع الذي بدأه عماد الدين زنكي، فقد برز هذا القائد في قمة الانكسار والانهزام الذي وصلت اليه الامة فكان الضوء الذي اعاد الامل الى الامة بالعودة والانبعاث من جديد, وكان لمنجزاته على جهتي الحرب والسلم، وكيف طوع الظروف التي احاطت به وهو يسعى الى انشاء اكبر امارة اسلامية تقف بوجه الصليبيين وتخرجهم من بلاد المسلمين. (خليل ع.، 1985، صفحة 10-14)

يرجع عماد الدين زنكي في نسبه الى قبائل الساب يو[1] التركمانية، وكان لأبوه اق سنقر[2] دور كبير على مسرح الاحداث للدولة السلجوقية لذلك حظي باهتمام المؤرخين، فقد كانت علاقة والده بالسلاجقة والخدمات التي قدمها لهم والمكانة التي كان يتمتع بها لديهم وكان مخلصا لخدمتهم، وكذلك المنجزات التي حققها في حلب التي اعطته الشهرة، ويورد ابن واصل نص يؤكد فيه على وفاء اق سنقر فيصفه بالقول:" انه ذا وفاء عظيم، وحسن عهد، ومروءة غزيرة. وانما كان قتله وفاء لسلطانه ورب نعمته: ملكشاه، وحفظا لولده – بركيا روق(487ـــ498ه/1094ـــ1105م) - من بعده". (واصل، 1953، صفحة 27/1) تلك الصفات الحميدة التي يتمتع بها ابوه مكنته من نيل المكانة الحميدة لدى السلاجقة ولدى سكان حلب على السواء.

[1]) قبائل الساب بو: وهي قبائل تركمانية حظيت بمكانة رفيعة عند السلاجقة. ينظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله, بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر ، (دمشق: د.ت)، 3844/8.

[2]) اق سنقر: اق سنقر الحاجب التركماني، الملقب قسيم الدولة، قائد وحاكم مسلم، تولى حكم حلب والموصل وعدة مدن حولهما، وهو والد القائد الشهير عماد الدين زنكي، اشتهر بصلاحه وعدله. ينظر: ابن خلكان ، ابي العباس شمس الدين احمد بن محمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق : احسان عباس، دار صادر ،(بيروت : 1414هـ)، 241/1.

نشأة زنكي السياسية:

ترجع نشأة عماد الدين زنكي الى الدور الذي اضطلع به والده اق سنقر لدى السلاجقة على المستويات العسكرية والادارية والسياسية، والمكانة التي حصل عليها نتيجة لخدماته التي قدمها للسلاطين السلاجقة، الذي كان له ابلغ الاثر في عناية الامراء السلاجقة بزنكي بعد مقتل والده وتقريبهم اياه، مما اتاح له الفرصة في تكوين شخصيته السياسية والعسكرية والادارية في ضل عناية السلاجقة له وتقريبه. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 31-36) صقل زنكي مواهبه الادارية والعسكرية والسياسية من خلال اشتراكه بالمعارك الى جانب السلاجقة وامرائهم ليبرز من خلال تلك المعارك ويلمع نجمه كقائد فذ ومتمرس في المعارك ، فكان زنكي يتمتع بذكاء ثاقب وشجاعة كبيرة وذو طموح كبير، دفعه الى ان يحاول التخلص من التبعية للسلاجقة والاستقلال في ولايته، فقد حاول استغلال كل الظروف لصالحه وتحديدا مسالة الصراع بين السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية، كذلك حاول استغلال الصراع داخل السلطنة السلجوقية ليظفر بكل ما يستطيع الحصول عليه من اجل تدعيم مركزه وتحقيق طموحاته.

يلاحظ كيف كانت علاقات عماد الدين زنكي وقيادته للصراع في منطقة بلاد والشام وكيف ادار الصراع ووجهه لصالحه محاولا استغلال كل فرصة واتبع كل الوسائل لتحقيق اهدافه في توحيد الجبهة الاسلامية وقيادة المسلمين لمواجهة العدوان الصليبي بشكل منظم ومخطط ومدروس بعد ان كان الامراء الذين سبقوه يقومون بحملات مرتجلة وغير منتظمة، فحاول استغلال كل ما يمكن ان يصب في مصلحة هذا الهدف، فكانت علاقته بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وانه وان كان يلتزم جانب السلاجقة نتيجة ارتباطه العسكري والاداري بهم الا انه في الوقت ذاته حاول ان لا يصطدم مع الخلافة العباسية، الا انه ونتيجة لطول الصراع والمكانة التي وصل اليها زنكي كان لابد من ان يدلي بدلوه في تلك الاحداث، ونتيجة لتقلب الاوضاع والظروف السياسية تعرض لأكثر من مرة لهزات كادت ان تطيح بإمارته وتنهي كل ما بناه ولكن حسن تدبيره للأمور ومهارته السياسية استطاع الخروج من تلك الازمات باقل الخسائر ومحافظته على المكتسبات التي حققها في امارته. (الاثير، الكامل في التاريخ، 1987، صفحة 249/10)

تأرجحت علاقات زنكي مع السلاجقة والخلافة بين المد والجزر وبين الوئام تارة والعداء تارة اخرى بحسب الظروف والاحداث والمواقف التي يتخذها كل طرف من الاخر، ولكن موقف زنكي بقي قويا نوعا ما, بسبب انتصاراته على الصليبيين ووقوفه بوجههم واصبح القوة الوحيدة القادرة على صدهم وقدم نفسه على انه قائد الجهاد بوجه الصليبيين، مما جعل الاطاحة به امراً غير مسوغ لكل من الخلافة والسلطنة على حد سواء ومرفوض من عامة المسلمين. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 49)

علاقة زنكي بالصليبيين:

اما عن علاقة عماد الدين زنكي بالصليبيين فقد تميزت بالصراع العسكري والحروب على مدى الحقبة التي حكم فيها زنكي، فقد اصطدم زنكي بالصليبيين منذ كان قائدا للأمراء السلاجقة الذين خاض معهم الحروب بوجه الصليبيين، وقد اكسبته تلك المعارك الشهرة الكبيرة بما اظهره من شجاعة نادرة.

لم يصطدم زنكي بالصليبيين عند توليه امارة الموصل مباشرة بل اجل الصدام معهم الى حين استكمال اهدافه بتوحيد الامارات المحلية وتكوين امارة قوية قادرة على الوقوف بوجههم، اتجه زنكي بعد ان اطمان الى القوة التي صار يملكها, والى الاوضاع داخل امارته الى البدء بمهاجمة الصليبيين وانتزاع املاكهم شيئا فشيئا، واستخدم في ذلك كل الاساليب المتاحة لديه سواء القوة العسكرية ام السياسة والمكر والحيل التي استطاع من خلالها تحقيق الكثير من اهدافه، وقد ظل الصراع بين الطرفين طيلة حكم زنكي إذ ان هدف زنكي منذ البداية هو تخليص البلاد الاسلامية من الصليبيين، لذلك كان لابد من ان تكون العلاقات بين الطرفين حروب على مدى تاريخ تلك العلاقات، ونتيجة للانتصارات التي حققها زنكي, احس الصليبيون بالخطر الذي يمثله زنكي على ممتلكاتهم ومصالحهم فشكلوا التحالفات من اجل القضاء عليه. (الاثير، الكامل في التاريخ، 1987، صفحة 24/11) ولكن زنكي بفضل قدراته العسكرية وحنكته السياسية ومكره ودهائه استطاع افشال تلك التحالفات وتفكيكها، بل استطاع بدهائه من زرع الشكوك بين المتحالفين، مستغلا الخلافات بين اطرافها. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 136-148)

كان من اعظم انجازات زنكي تحرير الرها من الصليبيين (539ه/1144م) الذي كان له الاثر الكبير في العالمين الاسلامي والمسيحي, إذ اعاد فتح الرها الامل للمسلمين بالتخلص من الاحتلال الصليبي الجاثم على اراضيهم، واعاد الثقة اليهم بانهم قادرين على الانتصار اذا ما هيأوا الاسباب لذلك، اما في العالم المسيحي فقد احدث تحرير الرها هزة كبيرة ادت الى قدوم الحملة الصليبية الثانية، اما فيما يخص زنكي فقد اصبح رمزا للقائد المسلم المخلص لدينه وارضه، وحامل لواء الجهاد ضد الصليبيين. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 150-155)

النظم العسكرية والاقتصادية والادارية لأمارة زنكي:

تنوعة النظم العسكرية لأمارة زنكي, وعلى راسها الجيش إذ ان المصادر لم تقدم سوى معلومات مختصرة عن جيش زنكي, وتكتفي بتقديم الاشارات فقط عن فرق الجند وطوائفهم، وعناصر الجيش ومقراتهم، ورواتب المقاتلين ومصادرها، واستدعاء الجيوش واساليب القتال. فتتحدث عن ديوان الجند الذي يشرف على امور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم واعطياتهم بانتظام، وان على راس الديوان موظف يسمى(امير حاجب). (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 83) وتشرح مهام الديوان ووظائفه وطرق ادارته، ثم تتحدث عن تنظيم الجيش وعناصره، ويرجح بان زنكي اعتمد النظم السلجوقية، وان نظمه اساس للأنظمة الايوبية والمملوكية. (القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، 1922، صفحة 5/4) وتذكر عناصر الجيش منهم الخرسانية وهم الحرس الخاص لزنكي، والتركمان، والحلبيين، ويذكر بان اغلب عناصر الجيش من المتطوعين، لذلك لم يكن عدد جيشه ثابتاً، وان هناك معسكرات للجيش منها ثابتة ومنها مؤقتة للحالات الطارئة، ويتم استدعاء الجيوش من خلال استدعاء المتطوعين لينضموا الى الجيش النظامي في المعارك، وتتكلم عن اساليب الحروب وانواع الاسلحة المستخدمة، وتتحدث عن علاقة زنكي بجنوده، وكيف كان شديد الهيبة عليهم، كان جبارا عظيما ذا هيبة على جنوده". (العديم، 1954، صفحة 283/2) وكان يهتم بالجند ويتكفل برعاية اهاليهم في غيابهم، كما اهتم بالجواسيس والتجسس بشكل كبير نتيجة للظروف التي كانت تحيط به وبإمارته, وكثرة الاعداء فكونّ جهازاً خاصاً اشبه بالاستخبارات في النظم الحديثة اعتمد عليه في رسم خططه الحربية.

اعتمد زنكي على نظام الاقطاع لتمويل جيشه فقسمه بين الامراء والجنود لضمان ولائهم له, وتشجيعهم على القتال والدفاع عن امارته، وكيف استفادة زنكي منه في تحقيق اهدافه، وفيما يخص الاتابكية فان زنكي لقب بالاتابك[3] منذ توليه الموصل، وحاول استغلال ذلك لصالحه في عدة محاولات ليسيطر على سلاجقة العراق من خلال تنصيب احد ابناء السلطان محمود(الب ارسلان بن محمود) سلطان السلاجقة الذي كان لديه وكان اتابكاً له، وكيف ان محاولاته باءت بالفشل. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 212-230)

وفيما يخص النظم الادارية التي كانت سائدة في ولاية زنكي والوظائف والمناصب التي هي امتداد للنظم السلجوقية التي سادت ذلك العصر وعصر الايوبيين والمماليك من بعده، مع بعض التطور والتعديل عليها، فان المناصب الادارية الرئيسة في ادارة الدولة وهي نائب السلطان او محافظ القلعة[4]، ولاية المدن، الوزارة، الدواوين، وقد اعتمد زنكي على الكفاءة في تولية المناصب فكان" يتعهد اصحابه ويمتحنهم فلا يرفع احدا فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه. (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 79) وكان شديد الرقابة على موظفيه وكان ينتقي موظفيه من " ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والانفس الابية". (شامة، 1956، صفحة 114/1)

المبحث الثاني

نور الدين محمود زنكي وتوسيع جبهة المقاومة

بعد اغتيال عماد الدين زنكي سنة (541هـ/1146م), ورث ابنه نور الدين محمود مشروع المقاومة ضد الصليبيين. وقد تميزت مرحلة حكمة (541ـــ 569ه/ 1146ـــ 1174م) بالقدرة على توسيع جبهة المقاومة الاسلامية وتوحيد اجزاء واسعة من الشام والعراق, اضافة الى وضع اللبنات الفكرية والسياسية التي مهدت لاحقا لنجاح صلاح الدين الايوبي في استرداد القدس.

تكوين نور الدين وشخصيته:

من المميزات التي تميز بها نور الدين محمود التي ساعدته على تحقيق كل تلك المنجزات العظيمة، فقد تميز بالجد والذكاء الفذ الذي يصل الى حد الدهاء. كان لديه احساس عالي بالمسؤولية شديد الحرص على دماء المسلمين من الهدر، وتجاه الكرامة الاسلامية ان تمتهن، والارض الاسلامية ان تغزى او تقتطع، ومن الدلائل على حرصه على دماء المسلمين ان تهدر انه عند حصاره لدمشق رفض نور الدين طوال الوقت ان يقتحم المدينة عنوة، حرصا منه على دماء المسلمين وتحرجا من قتل المسلمين فكان يقول:" لا حاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا، وانا ارفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.." . (القلانسي، 1908، صفحة 315-316) انه احساس القائد المؤمن الذي يعلم بان

[3]) تتألف كلمة (اتابك) من لفظين تركيين هما: (اتا) بمعنى اب و(بك) بمعنى امير(اي الامير الوالد). ينظر: ابن خلكان، وفيات، 316/1. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 7/1.

[4]) محافظ القلعة: منصب انشاه زنكي عند دخوله الموصل. وقد اطلقت المصادر عليه لقب النيابة. احيانا ودزدرارية قلاع الامارة ايانا اخرى. ينظر: ابن خلكان، وفيات، 315/1.

قتال ابناء الامة فيما بينهم يسهل على العدو ان يستبيح هذه الامة، وان حماية دمهم يسهل عليهم بذله في مجابة العدو. هذا هو التفسير المنطقي لانتصار الامم وهزائمها. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 15)

كان نور الدين يتعامل مع الاحداث بواقعية وعقلية كبيرة لم يركن الى الخرافات والشائعات بل واجهها بكل قوة مواجهة على ارض الواقع ليس بالقول فقط, بل بالعمل على الارض، ومن دلائل واقعيته تلك مواجهته للزلازل التي ضربت بلاد الشام في عهده في سنوات (552ه و 565ه/1157 و 1170م)، فقد شمر عن ساعده وباشر بإصلاح ما خربته تلك الزلازل، ولم يركن الى الخرافة والوهن، فلم يقل ان هذه الزلازل جاءت غضبا من الله وعقوبة ، بل باشر ببناء ما هدم واعادة البلاد الى افضل مما كانت عليه, ومن الدلائل على رفض نور الدين للخرافة والشائعات، رواية بناء المسجد النوري[5] في الموصل، إذ يذكر بانه كانت خربة واسعة في وسط الموصل اشيع عنها انه ما شرع احد في اعمارها الا ذهب عمره ولم يتم مراده، فقام بشرائها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتدرس فيه الدروس. وبقي المسجد الذي بني على تلك الخربة الى يومنا يستقبل المصلين وطلاب العلم. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 18-23)

كان نور الدين يمتلك شخصية قوية متوازنة ، وصفه ابن الاثير بانه " كانت اليه النهاية في الوقار والهيبة.. شديدا في غير عنف، رقيقا في غير ضعف"، (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 172-173) كان يتمتع بشعبية كبيرة جدا لدى ابناء الامة، تجاوزت حدود دولته الى جماهير خصومه من المدن الاسلامية، فقد ذكرنا كيف انه استطاع دخول دمشق بدون قتال بمساعدة اهلها، ان نور الدين يتعامل مع القواعد فيكسب حبها وثقتها ودعمها فاذا ما عارضه القادة والامراء او ترددوا فان القواعد تجبرهم على الطاعة والا ثارت عليهم وازاحتهم عن الحكم، هكذا تكون العلاقة بين القاعدة والقيادة التوحد والطاعة وبذل الجهود من اجل النهوض بالأمة ، هذا التعاطف والانسجام بين القاعدة والقيادة يفسر لنا تفسيرا منطقيا لاحد اهم الاسباب في النجاح الذي حققه في ادارة دولته. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 24-28)

كان نور الدين ذا شخصية عسكرية فذة تتميز بالشجاعة التي تصل الى الفدائية ومهارات الفروسية ورياضاتها، وكان رياضيا من الطراز الاول، فكان يمتلك كل المؤهلات التي يحتاجها القائد العسكري الناجح، وقد نشا نور الدين تحت رعاية والده، فتعلم القران والفروسية والرمي، ومنذ صباه رافق اباه في حملاته العسكرية، وبذلك فقد اعده ابوه لتحمل المسؤوليات الادارية والعسكرية في المستقبل. (شامة، 1956، صفحة 119/1) يصفه سبط ابن الجوزي في الحرب:" ثابت القدم، حسن الرمي، يتقدم اصحابه ويتعرض للشهادة ويسال الله ان يحشره من بطون السباع والطير". (الجوزي، 1370هـ، صفحة 307/8)

نظم واجراءات نور الدين الادارية:

اما في مجال الادارة فقد اعتمد نور الدين النظم الادارية نفسها المعمول بها في عصره، كان نور الدين يؤكد على ان كفاءة الاجهزة الادارية لا تعتمد على طبيعة بنيان تلك الاجهزة وتركيب تلك المناصب نفسها بقدر اعتمادها على الرجال الذين يعهد اليهم تلك المناصب والوظائف انفسهم، لذلك نراه ينتقي الرجال الذين يتميزون بالقدرة والكفاءة في العمل، كان المقياس لديه لتولية المناصب هو الكفاءة والنزاهة والقبول لدى المسلمين، بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية ومكانتهم الاجتماعية، لذلك نجد ان عددا كبيرا من كبار موظفيه من الخدم والعبيد ومن غير الشاميين ممن اتاه من اقاليم الدولة الاسلامية وقد تقلدوا اعلى الوظائف لانهم جاؤوا وهم يحملون كفاءات تؤهلهم لتولي تلك المناصب، اعتمد نور الدين في بداية توليه الحكم على رجالات والده عماد الدين زنكي المتقدمين في ادارة الدولة منهم اسد الدين شيركوه(ت564ه/1169م) عم صلاح الدين الايوبي(567ـــ589ه/1174ـــ1193م) وسيف الدين سوار[6] نائب زنكي في حلب وصلاح الدين الياغسياني[7] احد كبار مستشاري زنكي، لكنه لم يبقي اعتماده على العناصر من المخضرمين في الادارة بل عمل على تطعيمها بعناصر جديده اكثر فهما لأهدافه واكثر قدرة على التكيف

[5]) الجامع النوري: وهو جامع النوري الكبير الذي بناه نورالدين محمود في القرن السادس الهجري في الجانب الايمن(الغربي) من الموصل، ويشتهر الجامع بمنارته المحدبة نحو الشرق. ينظر: ابو شامة، الروضتين، 480/1.

[6]) سيف الدين سوار: الامير سوار بن ايتكين التركماني، سيف الدين، شجاع الدولة، احد القادة العسكريين في الدولة الزنكية ونائب زنكي في حلب. ينظر: العضيمي، تاريخ حلب، ص381.

[7]) صلاح الدين الياغسياني: احد افراد الوفد الذي ذهب الى بغداد وكان السبب في تولي عماد الدين زنكي الموصل، عينه عماد الدين امير حاجب، واعتمد عليه في مهامه العسكرية، وجعله احد قادته الكبار. ينظر: ابن الاثير، الكامل، 248/1.

مع الوضع الجديد، وكان على راس تلك العناصر الجديدة مجد الدين محمد ابوبكر بن الداية[8]، شقيق نورالدين في الرضاعة، واخوته. كان نورالدين يخضع موظفيه لرقابة صارمة من قبله ويعاقب من يسيء منهم العقاب العادل، وبذلك حقق نور الدين كل تلك الانجازات الكبيرة في ميدان الادارة كما حقق انجازاته في بقية الميادين. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 53-74)

كانت الادارة بالنسبة لنور الدين اداة لتحقيق اهدافه في تنفيذ شريعة الاسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة ، وبعث المجتمع الاسلامي واعادته الى اصوله الاسلامية النقية، ومن الشهادات على التزام نورالدين الشريعة وحمايتها وتطبيقها في ادارة دولته، قوله " نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والاذى الحاصل منهم قريب، افلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الاصل". (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 173-174) ويقول عنه ابن كثير:" كان يقوم في احكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر ... واظهر السنة وامات البدعة". (كثير، 1998، صفحة 278/12)

اجراءات نور الدين القضائية:

وفيما يخص القضاء فقد اهتم نور الدين اهتماما كبيرا بالقضاء, لأنه هو من يحق الحق والعدل في البلاد، لذلك اولى تلك المؤسسة اهتماماً خاصاً، لقد منح القضاة صلاحيات واسعة ومطلقة، ومنحهم استقلالا تاما. (شهبة، 1971، صفحة 25) في الاطلاع على القضايا المعروضة عليهم واصدار الاحكام فيها، كان يتحرى العدل ويسعى الى احقاق الحق ونصرة المظلوم ومطاردة الظلم اينما كان، يصفه ابن الاثير بانه " كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان. القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك الى حاجب ولا امير، فلا جرم ان سار ذكره في شرق الارض وغربها". (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 166) بلغت قمة اجراءاته في القضاء انشاء دار العدل في دمشق وهي اشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين اضافة الى سائر ابناء الامة، وكان يجلس بنفسه للقضاء، وكان يحضر معه الفقهاء من المذاهب كافة ليستشيرهم في القضايا التي تعرض عليه، وكان في قضائه لا يميز بين رعيته على اي دين كانوا فالكل عنده سواسيه، فكان " ينصف المظلوم ولو انه يهودي من الظالم ولو انه ولده او اكبر امير عنده". (الاثير، الكامل في التاريخ، 1987، صفحة 44/11) كان نورالدين يعتمد الشورى إذ كان لديه مجلس شورى يحضر فيه الفقهاء من مختلف المذاهب ليستشيرهم في جميع القضايا. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 78)

اجراءات نور الدين المالية والاجتماعية:

وفيما يخص المال والمجتمع فان نور الدين اولى المسالة الاجتماعية اهتماما كبيرا جدا ، كان نورالدين يرفض جميع صيغ الاستلاب والابتزاز والاستغلال التي كانت تمارسها الحكومات من خلال فرض الضرائب المجحفة وغير العادلة ، لذلك فان نورالدين سعى الى تقليص الضرائب الى ادنى الحدود، وكذلك احاطة اموال الدولة برقابة صارمة لحمايتها من الاستغلال، والسعي الى رفع مستوى القطاعات الفقيرة من ابناء الامة، وقد استند في ذلك الى موارد كافية تغطي كافت نشاطاته تلك. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 93-94)

ابتدأ نور الدين اصلاحاته الاجتماعية بالسياسة المالية لارتباطها المباشر بالمجتمع وتأثيرها الكبير عليه، فبدا بإلغاء كثير من الضرائب ، فقد كان نور الدين شديد الحساسية من الرسوم والضرائب التي تفرض على الناس فكان يقيم الليل يتهجد ويبكي ويدعو الله ويقول: اللهم ارحم العشار المكاس. وكان شديد الحرص على الاموال العامة وحمايتها من الاستغلال والتفريط، وكان شديد الرقابة على عماله وموظفيه منزلا بمن يسيء ويستغل منصبه اشد العقوبات، وهناك رواية عن معين الدين محمد[9] حفيد القيسراني وزير نور الدين ذكرها ابن واصل قال:" انكسر على ضامن دار الزكاة مال جم ،فحبس، فباع ما كان يملك من عقار بما قيمته ثمانية الاف دينار فحمله الى الخزانة، ولكنه ظل في الحبس مطالبا بما بقي في ذمته". (واصل، 1953، صفحة 169/1) كان من حرصه على اموال الناس وحمايتها من كبار الامراء والقادة الذين يستغلون مناصبهم ان بنى دار العدل لمحاكمة هؤلاء وكان يجلس بنفسه للحكم في القضايا وحماية حقوق الناس، هكذا ربط نور الدين مسالة العدل الاجتماعي وحماية الاموال العامة، بالعدل بمفهومه الشامل. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 94-107)

كان نور الدين شديد الرفق بالفقراء قريب منهم يواسيهم ويعيش تجربتهم إذ يصفه ابن كثير بالقول:" كان نور الدين عفيف البطن والفرج مقتصدا في الانفاق على اهله وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: انه كان ادنى الفقراء في زمانه اعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا".

---

[8]) مجدالدين محمد ابو بكر بن الداية: من اكبر الامراء النورية، وهو اخو نور الدين من الرضاعة، وصاحب امره، وبيت سره، وكان بطلا شجاعا دينا. ينظر: الذهبي، دول الاسلام، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات،(بيروت : 1985)، 341/12.

[9]) معين الدين محمد: عبدالله بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر بن صقر القرشي المخزومي. جده موفق الدين ابن القيسراني. وزير نورالدين ومن اعيان الكتاب. ينظر: الزركلي، الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين ، ط5(بيروت:1980م)،. 298/2.

(كثير، 1998، صفحة 278/12) وكان يأمر بإزالة الحجاب في المؤسسات القضائية ليستطيع الفقراء والضعفاء الوصول اليه واخذ حقوقهم وتقديم مظالمهم، وكان يولي كثير من الفقراء والخدم والعبيد مناصب ادارية كبيره وهناك العديد من الاسماء برزت من هؤلاء. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 112)

لم يقف نور الدين في سياسته المالية عند الغاء الضرائب فقط, بل سعى الى تقديم اوسع الخدمات لأبناء الامة، والى جعل مؤسسات الدولة ادوات صالحة لتنفيذ هذه الخدمات وتوسيعها الى اكبر قدر ممكن، فقد شملت الخدمات بناء المؤسسات الخدمية كالمارستانات والمدارس والجسور والقنوات والاسواق وغيرها من المؤسسات، وعن هذه المرافق الخدمية التي بناها نورالدين والخدمات التي تقدم بها، يقول ابن جبير عن دمشق فيقول:" وليس في هذه البلاد كلها بلدة احسن منها للغريب لان المرافق بها كثيرة". (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 115) كذلك وسع نظام الضمان الاجتماعي ليشمل كل ابناء الامة فقد شمل الضمان الاجتماعي كبار السن واليتامى وضمن مستقبل ابناء المقاتلين من خلال تكفل الدولة بهم. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 117-118)

تعامل نور الدين مع العلم والعلماء:

اما في مجال العلم فان نور الدين كانت له منجزات عظيمة في هذا المجال، لقد اهتم نور الدين بالعلم والعلماء اهتماما كبيراً, لأنه كان يسعى الى بناء مجتمع متماسك قوي البنية والعقيدة ، ولأنه كان يواجه عدوا متغلغلا في الاراضي المحيطة به، فهو في صراع مع العدو صراع مذهبي بين امة وامة, لذلك كان عليه ان يعمل على تأصيل الذات العقائدية للامة الاسلامية، من اجل مواجهة هذا العدو وبناء امة مقاتلة قادرة على ان تحمي وجودها العقائدي وتحفظ شخصيتها الحضارية من الضياع .

وقد عمل نور الدين في هذا المجال كما في المجالات الاخرى فبدا بنفسه ليكون القدوة والأنموذج الذي يقتدي به رعيته، فبلغ بالتعبد والتقوى قمة الاعداد الروحي، وبالرياضة بلغ قمة الاعداد الجسدي، واما عن الاعداد العقلي والفكري فان نور الدين كان عالما قبل ان يكون حاكما، كان يحب العلماء ويقربهم اليه ويتقرب منهم، فكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع فيها العلماء م2والفقهاء للبحث والنظر. (واصل، 1953، صفحة 283/1) كان نورالدين يستشيرهم ويستفتيهم في كافة امور الدولة حرصا منهى على اقامة الشرع والتمسك بالشورى، فهناك رواية تتحدث عن استفتائه الفقهاء في اموال الغنيمة وما يحق له منها،" فاخذ ما افتوه بحله، ولم يتعده الى غيره البته". (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 164) تبين تلك الرواية مدى التزام نورالدين الشرع والتزامه في تطبيق ما يفتي به الفقهاء وهو دليل على صدقه مع نفسه ومواطنيه ومع ربه، لقد بلغ العلماء لدى نورالدين من المكانة ما جعل الامراء يحسدونهم عليها، فكانت دولة نورالدين دولة العلم والمعرفة التي جذبت العلماء وطلاب العلم من كافة اصقاع الارض لما كان للعلم من مكانة وحظ في دولته. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 129-135)

ولتشجيع العلم ونشره, بنى نور الدين مكاتب لتعليم الايتام وخصص لهم ولمعلميهم اعطيات، واوقف اوقاف كثيرة للمدارس والمساجد ، وقد انسحبت سياسته تلك على امرائه إذ راحوا يتسابقون في بناء المدارس ووقف الوقوف عليها، الامر الذي احدث ثورة علمية في دولته لتصبح قبلة العلماء وطلاب العلم يشدون الرحال اليها وقد ساهم نور الدين بنفسه في تشجيع تلك الرحلات من خلال مراسلته العلماء والفقهاء يشجعهم للقدوم اليه والاشتغال في التعليم، لم يتعصب نور الدين لأي مذهب ولم يقدم مذهب على اخر بل تعامل مع كل المذاهب بالعدل والمساواة وبنى المدارس لجميع المذاهب مادامت تعمل في ظل العقيدة والفكر الاسلامي وتحقق الهدف الاسمى في تأصيل العقيدة الاسلامية في المجتمع. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 136-165)

الفصل الثالث

بناء الجبهة الموحدة (نواة الدولة الموحدة)

لقد كان واضحا ان سيطرة البرسقي على حلب و الموصل وتوحيدهما تحت حكمه ، اضحى يهدد الصليبيين وكيانهم ، فقد كان هدف البرسقي وزنكي من بعده، في هذه الوحدة اقامة امارة مستقلة يتوارثها ابنائه من بعدة وتكوين قوة قادرة على الوقوف بوجه الصليبيين.

خطوات زنكي في توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين:

اصطدم مشروع زنكي بالأمارات المحلية في ديار بكر، لذا كان عليه لإكمال مخططه في اقامه امارة موحدة قوية تقف بوجه الصليبيين اكتساح عدد من الامارات المحلية التي كانت تشكل خطرا على خطوط مواصلاته وتحركاته في الشام، وخاصة في الحالات التي يكون فيها صدام مع الصليبيين، وعمل وفق خطته القاضية " بالا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره، حزما منه واحتياطا". (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 73)

وقد استطاع بفضل قوته العسكرية وحنكته السياسية من تحقيق اهدافه بتوحيد الامارات المحلية تحت حكمه فقد استخدم جميع الاساليب من اجل تحقيق اهدافه فتارة نراه يستخدم القوة العسكرية وتارة اخرى يلجا الى الاساليب السياسية والدبلوماسية والتحالفات وقد استخدم اسلوب المصاهرة والزواج من اجل تحقيق اهدافه.

اما عن علاقته بالأكراد الذين يحيطون بإمارة زنكي من الشمال والشمال الشرقي، فانه لقربهم من الموصل جعل مسالة السيطرة عليهم من اولويات زنكي وذلك لضمان امن ولايته ولبناء خط دفاعي امن لولايته من جهة الشرق لحماية ظهره اذا ما توغل في بلاد لشام باتجاه الغرب، لذلك قام زنكي بالعديد من الحملات للسن2يطرة على القبائل الكردية التي تقطن تلك المنطقة واخضاعها لنفوذه، وقد حقق زنكي اهدافه بإقامة سياج حول امارته كما كان يقول" ان البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول". (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 79) وحقق كل انجازاته تلك بفضل مقدرته العسكرية، وخططه البارعة التي من خلالها استطاع التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية، وبذلك استطاع احاطة امارته بخطوط دفاع يصعب اختراقها. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985)

اما سياسة زنكي تجاه امارات المدن المنتشرة في بلاد الموصل والجزيرة وشمال الشام وكيف تعامل معها، فان اهداف زنكي بتوحيد المنطقة واقامة امارة اسلامية موحدة قادرة على الوقوف بوجه الصليبيين تقتضي توحيد تلك المدن وضمها الى ولايته، فقام بحملات عسكرية من اجل اخضاع تلك المدن لحكمة واتبع كافة الوسائل لتحقيق هدفه سواء كانت عسكرية او سياسية حقق من خلالها هدفه حيث تمكن من بسط نفوذه في تلك المنطقة وضم العديد من المدن المهمة مثل حلب وجزيرة ابن عمر[10] وكثير من المدن المهمة في المنطقة، استطاع زنكي من خلال سيطرته على المدن وجعل حكمه حكماً فعلياً وامراً واقعاً في المنطقة والقضاء على التفكك والتناحر الحاصل بين تلك المدن وتوحيد الجهود في مواجهة الاعداء الخارجيين. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 101-116)

واما علاقة زنكي بحكام دمشق فقد قام عماد الدين زنكي بعدة حملات من اجل اخضاع دمشق لحكمه ليكتمل مشروعه الذي رسمه في توحيد بلاد الشام في جبهة واحدة في مواجهة الصليبيين، ونضرا لأهمية دمشق وموقعها الاستراتيجي فقد كانت الهدف الرئيس لحملات زنكي، ومن اجل السيطرة على دمشق كان على زنكي ان يخضع جميع المدن المحيطة بها مثل حماة وحمص الواقعتين على الطريق الى دمشق ولما يمثلانه من قواعد هامة لقواته اذا ما اراد مهاجمة دمشق، لذلك قام بمهاجمة تلك المدينتين، واستطاع السيطرة عليها من دون عناء يذكر، وتوجه بعدها الى حمص وبعد صراع طويل مع حكامها وحكام دمشق استطاع في نهاية المطاف اخضاعها والسيطرة عليها، ليتفرغ بعد ذلك لمهاجمة دمشق التي دخل مع حكامها بصراع طويل اخذ عدة اشكال واستخدم كثير من الوسائل والاساليب من اجل السيطرة عليها، فيما وقف حكامها بوجهه بكل قوة واستخدموا الوسائل المتاحة لهم حتى انهم تحالفوا مع الصليبيين واستنجدوا بهم من اجل دفع زنكي عنهم، الامر الذي لم يمكن زنكي من اخضاع المدينة لحكمه. (خليل ع.، عماد الدين زنكي، 1985، صفحة 119-131)

كان هدف زنكي بعد توليه الموصل عام(521ه/1127م) هو "عبور الفرات ومللك حلب ... ثم الاستيلاء على غيرها من البلاد الشامية" كما اعلن ذلك بنفسه. (الاثير، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، 1963، صفحة 37) وقد ادرك انه ما لم يضمن سيطرته على حلب، وما لم يحافظ على المكتسبات التي حققها البرسقي في انشاء نواة لدولة موحدة ؛ فلن يكون قادرا على توسيع هذه الوحدة والبدء بأعمال التحرير في مواجهة العدو الصليبي. لذلك لم يشتبك زنكي مع الصليبيين منذ البداية، بل سعى الى تثبيت اركان امارته الجديدة وتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية، وضم الامارات المحيطة بها. لذا قام بمراسلة جوسلين امير الرها وعقد معه هدنة مؤقتة، من اجل التفرغ للاستيلاء على ما تبقى له من البلاد الشامية والجزرية، واصلاح شانها. كانت مدة هذه سنتين لم تشر المصادر الى شروطها. (واصل، 1953، صفحة 36/1)

دخل زنكي حلب في العام التالي لاتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام، ثم انطلق بعد ذلك الى ضم الحصون والامارات المحلية وتوسيع حدود امارته في شتى الاتجاهات، وبعد ان انهى زنكي معظم مشاكله وحروبه ضد الامراء المحليين، وانتهاء هدنته مع جوسلين، بدأ صراعه مع الصليبيين؛ إذ خاض معهم اشد المعارك وانزل بهم هزائم كبير والحق بهم خسائر فادحة، الامر الذي جعل الصليبيون يدركون ان عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم. ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم الى الدفاع، بعد ان كانوا "قد طمعوا في امتلاك الجميع". (الاثير، الكامل في التاريخ، 1987، صفحة 253/10)

كان اعظم انجازات زنكي العسكرية هو تحرير الرها عام(539ه/1144م)، إذ انها تعد من اهم المراكز الصليبية, باعتبارها قاعدة لأحدى اماراتهم الاربع في الشرق الاسلامي، ولقربها من العراق، وكانت تلك الامارة تمثل عائقا امام زنكي في تنفيذ مشروعه في توحيد الجبهة الاسلامية في الجزيرة وشمالي والشام، بسبب تدخلها ودعمها للأمراء المناهضين له، وكونها تشكل خطر دائم يهدد خطوط المواصلات بين الموصل وحلب ، وبين بلاد فارس وسلاجقة اسيا الصغرى.

[10]) بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة ايام. ينظر: الحموي، معجم البلدان، 2/ 138.

كان زنكي يسعى الى استكمال تحرير المدن في الجزيرة الفراتية، ومن ثم والتحول الى الشام؛ لولا حدوث مؤامرات ومشاكل في الموصل والرها اضطرته لإيقاف نشاطه والتوجه للقضاء عليها ومن ثم العودة لإكمال برنامجه. لكن اغتياله بعد وقت قصير عند اسوار قلعة جعبر على نهر الفرات عام(541ه/1147م) . (القلانسي، 1908، صفحة 284) اوقف مشاريعه ومطامحه التحريرية والتوحيدية معا.

استطاع زنكي ان يكّون لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الاسلامي كسياسي بارع وعسكري قدير وقائد واع، ادرك الخطر الذي احاق بالعالم الاسلامي من قبل الغزاة؛ فقد استطاع ان يطوع الظروف القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الاسلامية، وتوحيد المدن والأمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة، من اجل تحقيق مشروعه في تشكيل الجبهة الاسلامية وضرب الصليبيين. وقد اتبع منذ البداية سياسة الضم الوحدوي، وذلك لإدراكه خطورة بقاء الكيانات المستقلة والتي تشكل خطر وتهديد لخطوط مواصلاته وتهدد اي تحرك يقوم به، فضلا عن ذلك السياسة الانعزالية لأمراء تلك المناطق وتامرهم مع الصليبيين، تمثل تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية. لذلك فان الدور الذي اضطلع به زنكي في تاريخ تلك الحقبة واضح. اذ يعتبر اول قائد قام بتجميع القوى الاسلامية وفق برنامج مرسوم ليجابه بها الخطر الصليبي. (خليل ع.، الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، 2018، صفحة 156-157)

جهود نور الدين زنكي في استكمال وحدة الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين

ورث نور الدين محمود (541ـــ569ه/1147ـــ 1174م) جانبا كبيرا من تراث ابيه السياسي والعسكري في بلاد الشام، وبعد سنوات طويلة من الجهاد استطاع تحيق هدفه في توحيد مصر وبلاد الشام(567ه/1171م)، بعد ضم دمشق(549ه/1155م) الى امارته، وبذلك فقد حقق حلم ابيه بتوحيد الجبهة الاسلامية، واستكمال مشروع الوحدة الذي بداه كل من البرسقي وزنكي، فهو لم يوحد بلاد الشام وحسب، بل اضاف اليها مصر، بما لها من موقع استراتيجي مؤثر، فوضع العدو بين فكي كماشة، واطبق علية من الشمال والجنوب، ثم اسقط الدولة الفاطمية العاجزة بوزرائها المتكالبين على السلطة باي ثمن، فوظف جميع الطاقات الاسلامية لمجابهة الصليبيين، حيث مهد بذلك الطريق لصلاح الدين الايوبي، لكي يقطف ثمرة هذا العمل الطويل في قلب فلسطين وتحرير بيت المقدس، لقد امضى نور الدين زهرة عمره في مواصلة طريق لم الطاقات الاسلامية بصيغة اتحادية تتناسب والمرحلة الزمنية التي كان يجتازها. (خليل ع.، الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، 2018، صفحة 159)

ظل نور الدين خلال سنوات حكمه يتحرك على خط متواز من التحرير والتوحيد، اسوة بما فعله البرسقي وزنكي من قبله، وكان نور الدين يلحق الهزائم القاسية بالصليبيين، وقد اضاف نور الدين بعدا جديدا الى التحرير والتوحيد، لم يكن سلفاه، البرسقي وزنكي، قد منحاه الاهتمام الكافي، فنجد ان نور الدين اعطاه الاولوية طيلة فترة حكمه باعتباره القاعدة الضرورية لكل انجاز جاد، ذلك هو بناء الجبهة الداخلية بناء ايمانيا اصيلا، والاهتمام بالتعبئة العقدية والنفسية. (خليل ع.، نور الدين محمود الرجل وتجربتة الاسلامية، 1987، صفحة 179-183)

ان المتتبع لاعمال نور الدين الادارية والمالية والاجتماعية ، يلحظ هذا الرابط الذي يربطها جميعا، حيث سعى من خلال ذلك الى تكوين الامة المجاهدة القديرة على مواجهة العدو والوقوف. وهي مسالة لم يهتم بها سلفاه بالقدر الكافي الذي اولاه اياها، ومن اجل تحقيق هذا الهدف، اهتم نور الدين بالسياسات الادارية والاجتماعية والثقافية والتربوية اهتماما ملحوظا.

ان الوحدة التي اتكمل صلاح الدين الايوبي اسبابها، وجنى ثمارها في معركة حطين (583ه/1187م) وتحرير القدس، انما هي نتيجة لجهود وتضحيات قادة سابقون، وليس صدفة ان يكون كل واحد من هؤلاء القادة قد تربى ونشا في رعاية من سبقه، وتولى هو بدوره رعاية من يليه. فزنكي نشا في رعاية ولاة الموصل، والبرسقي واحد منهم، وتربى نور الدين محمود في كنف ابيه زنكي، وصلاح الدين الايوبي اعتنى به زنكي طفلا وصبيا، واهتم به نور الدين محمود شابا. (خليل ع.، الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، 2018، صفحة 160)

الخاتمة

ان الدولة الزنكية لم تكن مجرد تجربة سياسية عابرة في تاريخ المشرق الاسلامي , بل كانت نقطة حول حاسمة في الصراع الاسلامي - الصليبي. فقد تمكن عماد الدين زنكي من وضع الاسس الاولى للمقاومة المنظمة. بينما نجح ابنه نور الدين محمود في تطوير هذه التجربة وتوسيعها حتى اصبحت مشروعا شاملا يجمع بين البعد العسكري والسياسي والفكري.

ادرك الزنكيون مبكرا ان المواجهة مع الصليبيين تتطلب اكثر من المعارك الميدانية؛ اذ تحتاج الى تعبئة فكرية وثقافية ودينية واسعة. لذلك اهتموا بالعلماء والفقهاء, وانشأوا المدارس والمساجد, ونشروا خطابا جهاديا وحدويا ساعد على توحيد الصف الاسلامي في الشام والجزيرة. كما ان البناء السياسي والعسكري المتماسك الذي اسسوه مهد الطريق لاحقا لنجاحات الدولة الايوبية في استكمال مشروع تحرير الاراضي الاسلامية, وصولا الى تحرير القدس على يد صلاح الدين الايوبي.

ابرزت التجربة الزنكية بوضوح العلاقة التفاعلية بين السلطة والجهاد والفكر؛ حيث ان المقاومة الصليبية كانت في جوهرها مشروعا حضاريا يهدف الى حماية هوية الامة, وليس مجرد رد فعل عسكري.

عندما توفرت القيادة المخلصة والمسؤولة لدى الزنكيون تمكنوا من حماية طاقات الامة من الضياع في الصراعات بين ابناء الامة, واستثمار تلك الطاقات في بناء دولة موحدة, وان يكونوا قوة قادرة على الوقوف بوجه الصليبيين واخراجهم من بلاد المسلمين.

المصادر

ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني .(1963) .*التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية* (عبد القادر طليمات، محقق). دار الكتب الحديثة.

ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني .(1987) .*الكامل في التاريخ* .دار الكتب العلمية.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي .(1992) .*المنتظم في تاريخ الملوك والأمم* (محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، محققان؛ ط. 1). دار الكتب العلمية.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. (1414هـ) .*وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* (إحسان عباس، محقق). دار صادر.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله .(1954) .*زبدة الحلب من تاريخ حلب* (سامي الدهان، محقق). المعهد الفرنسي للدراسات العربية.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله. (د.ت.) .*بغية الطلب في تاريخ حلب* (سهيل زكار، محقق). دار الفكر.

ابن عساكر، علي بن الحسين .(2001) .*تاريخ دمشق الكبير* (علي عاشور الجنوبي، محقق). دار إحياء التراث العربي.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن .(1956) .*تاريخ ابن الفرات* (قسطنطين زريق، محقق؛ ط. 1). دار الكتب المصرية.

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد .(1971) .*الكواكب الدرية في السيرة النبوية: تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي* .دار الكتاب الجديد.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة .(1908) .*ذيل تاريخ دمشق* (آمدروز، محقق). مطبعة الآباء اليسوعيين.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي .(1998) .*البداية والنهاية* (عبد الله بن عبد المحسن التركي، محقق). دار هجر للطباعة.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (د.ت.) .*لسان العرب* (ط. 3). دار إحياء التراث العربي.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف .(1956) .*المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي* (أحمد يوسف نجاتي، محقق؛ ط. 1). دار الكتب المصرية.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي .(1956) .*الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية* (محمد حلمي محمد أحمد، محقق). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله البغدادي .(2010) .معجم *البلدان* (ط. 8). دار صادر.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان .(2004) .*سير أعلام النبلاء* (مصطفى عبد القادر عطا، محقق). دار الكتب العلمية.

سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله. (1370هـ) .*مرآة الزمان في تاريخ الأعيان* (ط. 1). دائرة المعارف العثمانية.

العظيمي، محمد بن علي .(1984) .*تاريخ حلب* (إبراهيم زعرور، محقق). دار الوثائق.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي .(1922) .*صبح الأعشى في صناعة الإنشا* .دار الكتب المصرية.

خليل، عماد الدين .(1980) .*الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر* (ط. 1). مؤسسة الرسالة.

خليل، عماد الدين .(1985) .*عماد الدين زنكي* .مطبعة الزهراء.

خليل، عماد الدين .(1987) .*نور الدين محمود: الرجل وتجربته الإسلامية* (ط. 2). دار القلم.

خليل، عماد الدين .(2018) .*الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين* (ط. 1). دار ابن كثير.

المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالبشاري .(1906) .*أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (دي غويه، محقق). مطبعة بريل